سـورة ق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة السورة

مكية كلهـا في قول الحسن وعطاء وعكرمة وجـابر. قال ابن عباس وقتـادة: إلا آية، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]. وفي «صحيح مسلم» عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت: لقد كان تنورنا وتنور رسول الله ﷺ واحداً سنتين - أو سنة وبعض سنة - وما أخذت ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ إلا عن لسان رسول الله ﷺ؛ يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس [(١)]. وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل أبا واقد الليثي: ما كان يقرأ به رسول الله ﷺ في الأضحى والفطر؟ فقال: كـان يقـرأ فيهما بـ ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ و ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [(٢)]. وعن جابر بن سـمرة أن النبي ﷺ كان يقرأ في الـفجر بـ ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ وكانت صلاته بعد تخفيفا [(٣)].

﴿قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ ۝ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝ بَلْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ قرأ العامة ﴿قٓ﴾ بالجزم [(٤)]. وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق ونصر ابن عاصم «قافِ» بكسر الفاء؛ لأن الكسر أخو الجزم، فلما سكن آخره حركوه بحركة الخفض. وقرأ عيسى الثقفي بفتح الفاء، حركه إلى أخف الحركات. وقرأ هارون ومحمد بن السميقع «قافُ» بالضم؛ لأنه في غالب الأمر حـركة البناء نحو مُنْذُ وقَطُّ وقَبْلُ وبَعْـدُ. واختلف في معنى ﴿قٓ﴾ ما هو؟ فقال ابن زيد وعكرمة والضحاك: هو جبل محيط بالأرض من زمـردة خضراء أخضرت السماء منه، وعليه طرفا السماء، والسماء عليه مَقْبِـيَّةٌ، وما أصاب الناس من زمرد كان مما تساقط من ذلك الجبل. ورواه أبو الجوزاء عن عبـد الله بن عباس. قال الفراء: كـان يجب على هذا أن يظهر الإعراب في ﴿قٓ﴾؛

---

(١) صحيح: مسلم (٨٧٣) في الجمعة.

(٢) صحيح: مسلم (٨٩١) في صلاة العيدين.

(٣) صحيح: مسلم (٤٥٨) في الصلاة.

وقال العلامة ابن كثير - رحمه الله: في تفسيره (٧/ ٣٠٣): «والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبـار، كالعـيد والجمعُ لاشـتمالهـا على بدء الخلق، والبعث، والنشـور، والمعاد، والقـيام، والحساب، والجنة، والنار، والثواب، والعقاب، والترغيب والترهيب. ا. هـ.

(٤) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص ١٧٤)

لأنه اسم وليس بهجاء. قال: ولعل القاف وحدها ذكرت من اسمه؛ كقول القائل:

قلتُ لها قِفي فقالتْ قافْ

أي أنا واقفة. وهـذا وجه حسن وقد تقـدم أول « البقرة » (١). وقال وهب: أشـرف ذو القرنين على جبل قـاف فرأى تحته جـبالاً صغارًا، فـقال له: ما أنت؟ قال: أنا قـاف، قال: فما هذه الجـبال حولك ؟ قال: هي عـروقي وما من مدينة إلا وفيـها عرق من عروقي، فـإذا أراد الله أن يزلزل مدينة أمرني فحـركت عرقي ذلك فتزلزلت تلك الأرض؛ فـقال له: يا قاف أخبـرني بشيء من عظمة الله؛ قال: إن شأن ربنا لعظـيم، وإن ورائي أرضا مسيرة خـمسمائة عام في خـمسمائة عـام من جبال ثلج يحطم به بعـضها بعـضًا، لولا هي لاحـترقت من حـر جهنم. فـهذا يدل على أن جهنـم على وجه الأرض والله أعلم بموضعها؛ وأين هي من الأرض. قال: زدني، قـال: إن جبريل عليه السلام واقف بين يدي الله ترعد فرائصه، يخلق الله من كل رعدة مائة ألف ملك، فأولئك الملائكة وقوفٌ بين يدي الله تعالى منـكسو رؤوسهم، فـإذا أذن الله لهم في الكلام قالوا: لا إله إلا الله؛ وهو قـوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨] يعنـي قول: لا إله إلا الله (٢).

وقال الزجـاج: قوله: ﴿قٓ﴾ أي قضي الأمـر، كمـا قيل في﴿حٰمٓ﴾ أي حُمَّ الأمرُ. وقـال ابن عباس: ﴿قٓ﴾ اسم من أسماء الله تـعالى أقسم به (٣). وعنه أيضا: أنه اسم من أسـماء القرآن (٤). وهو قول قتـادة. وقال القرظي: افتـتاح أسماء الله تعـالى قدير وقاهر وقريب وقـاض وقابض. وقال

---

(١) راجع الآية (١) من سورة البقرة ،وقد فصلنا هناك القول بأن ﴿قٓ﴾ و ﴿الٓمٓ﴾ و ﴿الٓرٰ﴾ وغيرها حروف مذكورة في أول السور لإعجاز العرب ،وهم أهل فصاحة وبلاغة.

(٢) نعـوذ بالله أن نقول زوراً على الله ورسوله ﷺ ، فـما جبل ﴿قٓ﴾ هذا إلا فرية افتـراها الذين أوتو الكتاب من اليهود والنصارى ، ورحم الله العلامة ابن كثير إذقال (٧/ ٣٠٣، ٣٠٤) في تفسيره :

«وقد رُوِى عن بعض السلف أنهم قالوا :﴿قٓ﴾ جبل محيط بجميع الأرض يقال له: جبل قاف وكان هذا ،والله أعلم ـ من خرافات بني إسرائيل التى أخذها منهم بعض النحاة لما رأى من جواز الرواية عنهم فيما لا يصدق ولا يُكذّب ،وعندى أن هذا وأمثاله وأشبـاهه من اختلاق بعض زنادقتهم يلبسون على الناس أمر دينـهم، كما افترى في هذا الأمة مع جلال قدر علمائها وحفاظها وأئمتها أحاديث عن النبى ﷺ وما بالعهد من قدم ، فكيف برمة بنى إسرائيل مع طول المدى ،وقلة الحُـفّاظ النُقّاد فيهم وشربهم الخـمور وغريب علمائهم عن مواضـعه، وتبديل كتب الله وآياته .

وإنما أباح الشارع الرواية عنهم فى قوله:« وحدثوا عن بني إسـرائيل ولا حرج » [البخارى (٣٤٦١) فى أحاديث الأنبياء] فـيما قد يُجوّزه الـعقل ، فأمّا ما تحـيله العقول ، ويحكم فيـه بالبطلان ، ويغلب على الظنون كذبه، فليس من هذا القبيل ،والله أعلم . ا . هـ .

ثم أشار إلى هذه الرواية مجرد إشارة ، وذكر روايات أخرى عن ابن عباس حكم عليها بالبطلان وعدم التجويز، من اعتبار ﴿قٓ﴾ حرفًا من الحروف فى أول سورة لا أكثر ،والله أعلم.

وللضرورة انظر: الإسرائيليات والموضوع (٣٠٢، ٣٠٥) لأبى شهبة ـ رحمه الله .

(٣) منقطع : بين علي بن أبى طلحة ، وابن عباس رضى الله عنهما. الطبرى (٢٦/ ١٥٢) في تفسيره.

(٤) صحيح الإسناد ومعناه غيرُ صحيح : السابق (٦/ ١٥٢) ، وعزاه السيوطى (٦/ ١١٥) فى الدر لعبد الرزّاق وعبد ابن حميد .

الشعبي: فاتحة السورة [١]. وقال أبو بكر الوراق: معناه قف عند أمرنا ونهينا ولا تعدهما. وقال محمد بن عاصم الأنطاكي: هو قرب الله من عباده، بيانه ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] وقال ابن عطاء: أقسم الله بقوة قلب حبيبه محمد ﷺ، حيث حمل الخطاب ولم يؤثر ذلك فيه لعلو حاله.

قوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ أي الرفيع القدر. وقيل: الكريم؛ قاله الحسن. وقيل: الكثير؛ مأخوذ من كثرة القدر والمنزلة لا من كثرة العدد، من قولهم: كثير فلان في النفوس؛ ومنه قول العرب في المثل السائر: (في كل شجر نار، واستمجد المرخ والعفار) [٢]. أي استكثر هذان النوعان من النار فزادا على سائر الشجر؛ قال ابن بحر. وجواب القسم قيل هو: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ على إرادة اللام؛ أي لقد علمنا. وقيل: هو ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ وهو اختيار الترمذي محمد بن علي قال: ﴿قٓ﴾ قسم باسم هو أعظم الأسماء التي خرجت إلى العباد وهو القدرة، وأقسم أيضا بالقرآن المجيد، ثم اقتص ما خرج من القدرة من خلق السموات والأرضين وأرزاق العباد، وخلق الآدميين، وصفة يوم القيامة والجنة والنار، ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] فوقع القسم على هذه الكلمة كأنه قال: ﴿قٓ﴾ أي بالقدرة والقرآن المجيد أقسمت أن فيما اقتصصت في هذه السورة ﴿لِذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]. وقال ابن كيسان: جوابه ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾. وقال أهل الكوفة: جواب هذا القسم ﴿بَلْ عَجِبُوا﴾. وقال الأخفش: جوابه محذوف كأنه قال: ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ لتبعثن؛ يدل عليه ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ ﴿أن﴾ في موضع نصب على تقدير: لأن جاءهم منذر منهم، يعني محمدًا ﷺ والضمير للكفار. وقيل: للمؤمنين والكفار جميعا. ثم ميز بينهم بقوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾ ولم يقل: فقالوا، بل قبح حالهم وفعلهم ووصفهم بالكفر، كما تقول: جاءني فلان فأسمعني المكروه، وقال لي الفاسق: أنت كذا وكذا. ﴿هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ العجيب الأمر الذي يتعجب منه، وكذلك العُجَاب بالضم، والعُجَّاب بالتشديد أكثر منه، وكذلك الأعجوبة. وقال قتادة: عجبهم أن دعوا إلى إله واحد [٣]. وقيل: من إنذارهم بالبعث والنشور. والذي نص عليه القرآن أولى.

قوله تعالى: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ نبعث؛ ففيه إضمار. ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ الرجع الرد، أي: هو رد بعيد، أي: محال. يقال: رجعته أرجعه رجعًا، ورجع هو يرجع رجوعا، وفيه إضمار آخر؛ أي وقالوا: أنبعث إذا متنا. وذكر البعث وإن لم يجر هنا فقد جرى في مواضع، والقرآن كالسورة الواحدة. وأيضا ذكر البعث منطو تحت قوله: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ لأنه إنما ينذر بالعقاب والحساب في الآخرة. ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي: ما تأكل من أجسادهم فلا يضل عنا شيء حتى تتعذر علينا الإعادة. وفي التنزيل: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]. وفي الصحيح: «كل ابن آدم يأكله التراب إلا عَجْبَ الذَّنَبِ منه

(١) وهذا هو الصحيح.

(٢) المرخ والعفار: شجرتان فيهما نارٌ ليست في غيرهما من الشجر، ويُسَوَّى من أغصانهما الزناد فيقتدح بها، وزنادهما أسرع الزناد وريا، والعرب تضرب بهما المثل في الشرف العالي، والمثل يضرب في تفضيل بعض أهل الفضل على بعض. من هامش المطبوعة، وانظر: الأمثال لابن سلام (ص١٣٦) وهامشه.

(٣) فتح القدير للشوكاني (٧/ ٢٤).

خلق وفيه يركب»[١] وقد تقدم. وثبت أن الأنبياء والأولياء والشهداء لا تأكل الأرض أجسادهم؛ حرم الله على الأرض أن تأكل أجسادهم. وقد بينا هذا في كتاب « التذكرة » وتقدم أيضا في هذا الكتاب. وقال السدي: النقص هنا الموت يقول: قد علمنا منهم من يموت ومن يبقى؛ لأن من مات دفن فكأن الأرض تنقص من الناس[٢]. وعن ابن عباس: هو من يدخل في الإسلام من المشركين[٣]. ﴿وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ أي: بعدتهم وأسمائهم فهو فعيل بمعنى فاعل. وقيل: اللوح المحفوظ أي محفوظ من الشياطين أو محفوظ فيه كل شيء. وقيل: الكتاب عبارة عن العلم والإحصاء؛ كما تقول: كتبت عليك هذا أي حفظته؛ وهذا ترك الظاهر من غير ضرورة. وقيل: أي وعندنا كتاب حفيظ لأعمال بني آدم لنحاسبهم عليها.

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾ أي القرآن في قول الجميع؛ حكاه الماوردي. وقال الثعلبي: ﴿بِالْحَقِّ﴾ القرآن. وقيل: الإسلام. وقيل: محمد ﷺ ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أي مختلط. يقولون مرة: ساحر، ومرة: شاعر، ومرة: كاهن؛ قاله الضحاك وابن زيد[٤]. وقال قتادة: مختلف[٥]. الحسن: ملتبس؛ والمعنى متقارب[٦]. وقال أبو هريرة: فاسد[٧]، ومنه مرجت أمانات الناس أي فسدت؛ ومرج الدين والأمر اختلط؛ قال أبو دواد:

مَرِجَ الدِّينُ فَأَعْدَدْتُ لَهُ ... مُشْرِفَ الْحَارِكِ مَحْبُوكَ الْكَتَد[٨]

وقال ابن عباس: المريج الأمر المنكر[٩]. وقال عنه عمران بن أبي عطاء: ﴿مَّرِيجٍ﴾ مختلط. وأنشد:

فجَالتْ فالتمستُ به حَشَاهَا ... فخَرَّ كأنه خُوطٌ مَرِيجُ

الخوط: الغصن. وقال عنه العوفي: في أمر ضلالة وهو قولهم: ساحر شاعر مجنون كاهن[١٠]. وقيل: متغير. وأصل المرج الاضطراب والقلق؛ يقال: مرج أمر الناس ومرج أمر الدِّين ومرج الخاتم في إصبعي إذا قلق من الهزال. وفي الحديث: «كيف بك يا عبد الله إذا كنت في قوم قد مرجت عهودهم وأماناتهم واختلفوا فكانوا هكذا وهكذا»[١١] وشبك بين أصابعه. أخرجه أبو داود

---

(١) متفق عليه: البخارى (٤٨١٤) في التفسير، ومسلم (٢٩٥٥) في الفتن وأشراط الساعة، عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه.

(٢) غريب وهو ضعيف: ذكره ابن عطية (٦/ ١٧٨) فى تفسيره، وعزاه للثعلبي.

(٣ ـ ٧) الطبرى (٢٦/ ١٥٥، ١٥٦) في تفسيره، والبغوى (٧/ ٣٥٦) فى تفسيره.

(٨) الحارك: الكاهل، والكتد: مجتمع الكتفين من الإنسان أو الفرس. والبيت فى اللسان« مرج»، والبحر المحيط (٨/ ١٢١) ونسبه إلى أبي داود.

(٩) ضعيف: كذا فى المحرر الوجيز (٦/ ١٧٩) لابن عطية، والطبرى (٢٦/ ١٥٥) في تفسيره، وفى سنده (وهب بن حبيب) ولم يوثقه غير ابن حبان، فهو مجهول.

(١٠) ضعيف جدا: الطبرى (٢٦/ ١٥٥) في تفسيره من طريق العوفيين.

(١١) صحيح: أبو داود (٤٣٤٣) فى الملاحم في تفسيره، وابن ماجه (٣٩٥٧) فى الفتن، وصححه الألباني (٢٠٥) فى الصحيحة، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنهما ـ وفى هامش ابن ماجه للألباني ـ رحمه الله ـ قال: «مرجت ـ بكسر الراء: اختلطت وفسدت». ا. هـ. =

وقد ذكرناه في كتاب « التذكرة ».

﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ ﴿قٓ﴾ حرف من حروف الهجاء المذكورة في أوائل السور، كقوله تعالى: ﴿صٓ﴾ و﴿نٓ﴾ و﴿الٓمٓ﴾ ونحو ذلك قاله مجاهد وغيره، وقد أسلفنا الكلام عليها في أول سورة « البقرة » بما أغنى عن إعادته، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾، أي الكريم العظيم الذي لا يأتيه باطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، واختلفوا في جواب القسم ما هو؟ فحكى ابن جرير عن بعض النحاة: أنه قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾ وفي هذا نظر، بل الجواب هو مضمون الكلام بعد القسم وهو إثبات النبوة وإثبات المعاد وتقريره وتحقيقه، وإن لم يكن القسم يتلقى لفظاً، وهذا كثير في أقسام القرآن كما تقدم في قوله: ﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ ﴾[ص]، وهكذا قال هاهنا: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي تعجبوا من إرسال رسول إليهم من البشر، كقوله جلَّ جلاله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ [يونس: ١] أي وليس هذا بعجيب، فإن الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس، ثم قال عزَّ وجلَّ مخبراً عنهم في تعجبهم أيضاً من المعاد واستبعادهم لوقوعه ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ أي يقولون أئذا متنا وبلينا وتقطعت الأوصال منا وصرنا تراباً، كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب؟﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ أي بعيد الوقوع، والمعنى: أنهم يعتقدون استحالته وعدم إمكانه، قال الله تعالى رداً عليهم: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي ما تأكل من أجسادهم في البلى، نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان، وأين ذهبت وإلى أين صارت ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾ أي حافظ لذلك، فالعلم شامل والكتاب أيضاً فيه كل الأشياء مضبوطة. قال ابن عباس: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي ما تأكل من لحومهم وأبشارهم، وعظامهم وأشعارهم؛ ثم بين تبارك وتعالى سبب كفرهم وعنادهم واستبعادهم ما ليس ببعيد، فقال: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أي وهذا حال كل من خرج عن الحق مهما قال بعد ذلك فهو باطل، والمريج: المختلف المضطرب المنكر، كقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩ ﴾ [الذاريات].

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١ ﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾ نظر اعتبار وتفكر، وأن القادر على إيجادها قادر على

قلت: وانظر: النهاية (٤/ ٣١٤) لابن الأثير.

الإعادة. ﴿كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ فرفعناها بلا عمد ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ بالنجوم ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ جمع فَرْج وهو الشق؛ ومنه قول امرئ القيس:

تَسُدُّ بِهِ فَرْجَهَا مِنْ دُبُرْ

وقال الكسائي: ليس فيها تفاوت ولا اختلاف ولا فتوق. ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ تقدم في « الرعد » بيانه(١)، ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ أي من كل نوع من النبات ﴿بَهِيجٍ﴾ أي حسن يسر الناظرين؛ وقد تقدم في « الحج» بيانه(٢). ﴿تَبْصِرَةً﴾ أي جعلنا ذلك تبصرة لندل به على كمال قدرتنا. وقال أبو حاتم: نصب على المصدر؛ يعني جعلنا ذلك تبصيرا وتنبيها على قدرتنا ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ معطوف عليه. ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ راجع إلى الله تعالى، مفكر في قدرته.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي من السحاب ﴿مَاءً مُّبَارَكًا﴾ أي كثير البركة. ﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ التقدير: وحب النبت الحصيد وهو كل ما يحصد. هذا قول البصريين. وقال الكوفيون: هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه، كما يقال: مسجد الجامع وربيع الأول وحق اليقين وحبل الوريد ونحوها؛ قاله الفراء. والأصل: الحب الحصيد، فحذفت الألف واللام وأضيف المنعوت إلى النعت. وقال الضحاك: حب الحصيد البر والشعير. وقيل: كل حب يحصد ويدخر ويقتات. ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ نصب على الحال ردا على قوله: ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ و﴿بَاسِقَاتٍ﴾ حال. والباسقات الطوال؛ قاله مجاهد وعكرمة(٣). وقال قتادة وعبد الله بن شداد: بسوقها استقامتها في الطول(٤). وقال سعيد بن جبير: مستويات(٥). وقال الحسن وعكرمة أيضا والفراء: مواقير حوامل(٦)؛ يقال للشاة: بسقت إذا ولدت، قال الشاعر:

فَلَمَّا تَرَكْنا الدارَ ظَلَّتْ مُنِيفَةً بِقُرَّانَ فيه الباسقاتُ المواقرُ

والأول في اللغة أكثر وأشهر؛ يقال: بسق النخل بسوقا إذا طال. قال:

لنا خمرٌ وليست خمر كَرْمٍ ولكنْ من نتاجِ الباسقاتِ
كِرامٌ في السَّماءِ ذَهَبْنَ طولاً وفاتَ ثمارَها أيدي الجُناةِ

ويقال: بسق فلان على أصحابه أي علاهم، وأبسقت الناقة إذا وقع في ضرعها اللبن قبل النتاج فهي مُبْسِق ونوق مَبَاسِيق. وقال قطبة بن مالك: سمعت النبي ﷺ يقرأ: «باصقات» بالصاد(٧)؛ ذكره الثعلبي.

قلت: الذي في «صحيح مسلم» عن قطبة بن مالك قال: صليت وصلى بنا رسول الله ﷺ فقرأ

---

(١) عند الآية (٣).

(٢) عند الآية (٥).

(٣) صحيح إلى مجاهد: وضعيف إلى عكرمة: الطبري (٢٦/ ١٥٨) فى تفسيره.

(٤) انظر: الطبرى فى تفسيره (٢٦/ ١٥٨)، وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (٦/ ١١٧) لابن جرير، وابن المنذر.

(٥) تفسير البغوى (٧/ ٣٥٧)، وفتح القدير للشوكانى (٧/ ٢٦).

(٦) انظر السابق، والفراء فى تفسيره (٣/ ٧٦).

(٧) ضعيف: البحر المحيط (١٠/ ١٠١) لأبي حيان، والمحرر الوجيز لابن عطية (٦/ ١٨٠).

﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾ حتى قرأ ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ ﴾ قال: فجعلت أرددها ولا أدري ما قال[1]؛ إلا أنه لا يجوز إبدال الصاد من السين لأجل القاف. ﴿ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ الطلع: هو أول ما يخرج من ثمر النخل؛ يقال: طلع الطلع طلوعا وأطلعت النخلة، وطلعها كفراها قبل أن ينشق. ﴿ نَّضِيدٌ ﴾ أي متراكب قد نضد بعضه على بعض. وفي البخاري « النضيد » الكُفُري ما دام في أكمامه ومعناه منضود بعضه على بعض؛ فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد. ﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ﴾ أي رزقناهم رزقا، أو على معنى أنبتناها رزقا؛ لأن الإنبات في معنى الرزق، أو على أنه مفعول له أي أنبتناها لرزقهم، والرزق ما كان مهيأ للانتفاع به. وقد تقدم القول فيه. ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ أي من القبور أي كما أحيا الله هذه الأرض الميتة فكذلك يخرجكم أحياء بعد موتكم؛ فالكاف في محل رفع على الابتداء. وقد مضى هذا المعنى في غير موضع. وقال: ﴿ مَّيْتًا ﴾ لأن المقصود المكان ولو قال: ميتة لجاز.

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ أي كما كذب هؤلاء فكذلك كذب أولئك فحل بهم العقاب؛ ذكرهم نبأ من كان قبلهم من المكذبين وخوفهم ما أخذهم. وقد ذكرنا قصصهم في غير موضع عند ذكرهم. ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ ﴾ من هذه الأمم المكذبة. ﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ أي فحق عليهم وعيدي وعقابي.

قوله تعالى: ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ﴾ أي أفعيينا به فنعيا بالبعث. وهذا توبيخ لمنكري البعث وجواب قولهم: ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾ [ق: ٣]. يقال: عييت بالأمر إذا لم تعرف وجهه. ﴿ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أي في حيرة من البعث منهم مُصدقٌ ومنهم مُكذبٌ؛ يقال: لَبَسَ عليه الأمرُ يَلْبِسه لَبْسًا.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ ﴾ يعني الناس، وقيل: آدم. ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ أي ما يختلج في سره وقلبه وضميره، وفي هذا زجر عن المعاصي التي يستخفى بها. ومن قال: إن المراد بالإنسان آدم؛ فالذي وسوست به نفسه هو الأكل من الشجرة، ثم هو عام لولده. والوسوسة: حديث النفس بمنزلة الكلام الخفي. قال الأعشى:

تَسْمَعُ لِلْحَلْيِ وَسْوَاساً إذا انْصَرَفَتْ ... كما استعان بريح عِشْرِقٌ زجِلُ

وقد مضى في «الأعراف»[2]. ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ هو حبل العاتق وهو ممتد من

(١) صحيح: مسلم (٤٥٧) في الصلاة، والنسائي (٢/ ١٥٧) في الافتتاح، وابن ماجه (٨١٦) في إقامة الصلاة والسنة فيها.
(٢) عند الآية (٢٠).

ناحية حلقه إلى عاتقه، وهما وريدان عن يمين وشمال. روي معناه عن ابن عباس [١] وغيره ،وهو المعروف في اللغة. والحبل هو الوريد فأضيف إلى نفسه لاختلاف اللفظين. وقال الحسن: الوريد: الوتين وهو عرق معلق بالقلب. وهذا تمثيل للقرب؛ أي نحن أقرب إليه من حبل وريده الذي هو منه، وليس على وجه قرب المسافة. وقيل: أي ونحن أملك به من حبل وريده مع استيلائه عليه. وقيل: أي ونحن أعلم بما توسوس به نفسه من حبل وريده الذي هو من نفسه، لأنه عرق يخالط القلب، فَعِلْمُ الرب أقرب إليه من عِلْمِ القلب، روي معناه عن مقاتل قال: الوريد: عرق يخالط القلب، وهذا القرب قرب العلم والقدرة، وأبعاض الإنسان يحجب البعضُ البعضَ ولا يحجب علمَ الله شيءٌ.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أي نحن أقرب إليه من حبل وريده حين يتلقى المتلقيان، وهما الملكان الموكلان به، أي نحن أعلم بأحواله فلا نحتاج إلى ملك يخبر، ولكنهما وكلا به إلزاما للحجة، وتوكيدا للأمر عليه. وقال الحسن ومجاهد وقتادة: ﴿الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ ملكان يتلقيان عملك: أحدهما عن يمينك يكتب حسناتك، والآخر عن شمالك يكتب سيئاتك [٢]. قال الحسن: حتى إذا مت طويت صحيفة عملك وقيل لك يوم القيامة: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] عدل والله عليك من جعلك حسيب نفسك [٣]. وقال مجاهد: وَكَّلَ الله بالإنسان مع علمه بأحواله ملكين بالليل وملكين بالنهار يحفظان عمله، ويكتبان أثره إلزاما للحجة: أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات، والآخر عن شماله يكتب السيئات، فذلك قوله تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [٤]. وقال سفيان: بلغني أن كاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات فإذا أذنب العبد قال: لا تعجل لعله يستغفر الله [٥]. وروي معناه من حديث أبي أمامة؛ قال: قال النبي ﷺ: «كاتب الحسنات على يمين الرجل ،وكاتب السيئات على يساره ،وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات، فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشرا ،وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال: دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر» [٦]. وروي من حديث علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن مقعد ملكيك على ثنيتك :لسانك قلمهما ،وريقك مدادهما ،وأنت تجري فيما

---

(١) روى الطبرى (٢٦/ ١٦٢) في تفسيره عن علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس: ﴿حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ عرق العنق .

(٢) كذا عند الطبرى (٢٦/ ١٦٤) فى تفسيره بأسانيد صحاح .

(٣) صحيح : السابق (٢٦/ ١٦٤) ، وابن كثير فى تفسيره (٨/ ٣٠٧، ٣٠٨) .

(٤) السابق (٢٦/ ١٦٤) .

(٥) هكذا رواه بلاغًا فهو ضعيف : الطبرى (٢٦/ ١٦٤) في تفسيره.

(٦) ضعيف وهو محتمل للتحسين : الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٠٨) وقال :« رواه الطبرانى، وفيه جعفر بن الزبير وهو كذّاب »، ورواه من طريق آخر ، كما رواه ابن راهويه فى مسنده ،والبيهقى فى شعب الإيمان ، وأبو نعيم فى الحلية (٦/ ١٢٤)،وقال الهيثمى فى المجمع (٦/ ١٢٤) : « رواه الطبرانى بأسانيد ، ورجال أحدها وُثقوا»، وحسنه الألبانى (٣/ ٢١٠) فى الصحيحة فهو شاهد حسن للرواية الأولى ،وليس فى الأولى شىء زائد غير أنَّ الحسنة بعشر أمثالها ، وقد دل القرآن والسنة على ذلك ـ كما قال الهيثمى. وانظر: الكافى الشافي (ص١٥٩) لابن حجر ،وفتح القدير (٣/ ١٠٠٧) للعلامة المناوى .

لا يعنيك فلا تستحي من الله ولا منهما [١]. وقال الضحاك: مجلسهما تحت الثغر على الحنك [٢]. ورواه عوف عن الحسن قال: وكان الحسن يعجبه أن ينظف عنفقته [٣]. وإنما قال: ﴿قَعِيدٌ﴾ ولم يقل قعيدان وهما أثنان؛ لأن المراد عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد فحذف الأول لدلالة الثاني عليه. قال سيبويه؛ ومنه قول الشاعر:

نَحْنُ بما عِندنا وأنتَ بما عندَكَ راضٍ والرَّأيُ مختَلِفُ

وقال الفرزدق:

إنِّي ضَمِنتُ لمن أتَاني ما جَنَى وأَبَى فكانَ وكنتُ غيرَ غَدُور

ولم يقل: راضيان ولا غدورين. ومذهب المبرد: أن الذي في التلاوة أول أُخِّرَ اتساعا، وحذف الثاني لدلالة الأول عليه. ومذهب الأخفش والفراء: أن الذي في التلاوة يؤدي عن الاثنين والجمع ولا حذف في الكلام.

و﴿قَعِيدٌ﴾ بمعنى قاعد كالسميع والعليم والقدير والشهيد. وقيل: ﴿قَعِيدٌ﴾ بمعنى مقاعد مثل أكيل ونديم بمعنى مؤاكل ومنادم.

وقال الجوهري: فعيل وفعول مما يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]، وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤]. وقال الشاعر في الجمع، أنشده الثعلبي:

أَلِكْنِي إِلَيْهَا وَخَيْرُ الرَّسُو لِ أَعْلَمُهُمْ بِنَوَاحِي الخَبَرْ

والمراد بالقعيد ها هنا الملازم الثابت لا ضد القائم.

قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أي ما يتكلم بشيء إلا كتب عليه؛ مأخوذ من لفظ الطعام وهو إخراجه من الفم. وفي الرقيب ثلاثة أوجه: أحدها: أنه المتبع للأمور. الثاني: أنه الحافظ؛ قاله السدي. الثالث: أنه الشاهد؛ قاله الضحاك [٤]. وفي العتيد وجهان: أحدهما: أنه الحاضر الذي لا يغيب. الثاني: أنه الحافظ المعد إما للحفظ وإما للشهادة. قال الجوهري: العتيد الشيء الحاضر المهيأ؛ وقد عتده تعتيدا وأعتده اعتداداً أي أعده ليوم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ [يوسف: ٣١] وفرس عَتَدٌ وعَتِدٌ ـ بفتح التاء وكسرها ـ المعد للجري.

قلت: وكله يرجع إلى معنى الحضور، ومنه قول الشاعر:

لئِن كُنتَ مِنِّي في العِيَان مُغَيَّباً فذكرك عندي في الفؤاد عَتِيدُ

قال أبو الجوزاء ومجاهد: يكتب على الإنسان كل شيء حتى الأنين في مرضه [٥]. وقال

---

(١) ضعيف: عزاه الحافظ فى تخريج أحاديث الكشاف للثعلبى(٤/ ٥٨٤) وكذا عزاه ابن عطية (٦/ ١٨٣) فى المحرر الوجيز.

(٢، ٣)البغوى فى تفسيره (٧/ ٣٥٩).

والعنفقة: هى ما بين الشفة السُّفلى والذقن، سواء أكان عليها شعر أم لم يكن، وقيل: ما نبت على الشفة السُّفلى من الشعر.

(٤)انظر: الماوردى في النكت والعيون (٥/ ٣٤٧).

(٥) ضعيف إلى مجاهد: ابن أبي شيبة في المصنف(٢/ ٤٤٣)، وفيه ليث بن أبي سليم وهو مدلس جداً.

عكرمة: لا يكتب إلا ما يـؤجر به أو يؤزر عليه [١]. وقيل: يكتب عليه كل مـا يتكلم به، فإذا كان آخر النهار مُحي عنه ما كان مبـاحا، نحو: انطلق اقعد كُلْ مما لا يتعلق به أجر ولا وزر، والله أعلم. وروي عن أبي هريرة وأنس أن النبي ﷺ قال: « ما من حافظين يرفعـان إلى الله ما حفظا فيرى الله في أول الصحيفة خيرا وفي آخرها خيرا إلا قال الله تـعالى لملائكته: اشهدوا أني قد غفرت لعبدي ما بين طرفي الصحـيفة » [٢]. وقال علي رضي الله عنه: إن لله ملائكة مـعهم صُحفٌ بيضٌ فأملوا في أولها وفي آخرها خيرا يغفر لكم ما بين ذلك. وأخرج أبو نعيم الحافظ قال: حدثنا أبو طاهر محمد بن الفضل بن محمـد بن إسحاق بن خزيمة قال: حدثنا جـدي محمد بن إسحاق قال: حـدثنا محمد بن موسى الحرشي قال: حدثنا سهيل بن عـبد الله قال: سمعت الأعمش يحدث عن زيد بن وهب عن ابن مسعود، قـال: قال رسول الله ﷺ: «إن الحافظين إذا نزلا على العـبد أو الأمة، معهـما كتاب مـختوم فيكتبـان ما يلفظ به العبد أو الأمة، فإذا أرادا أن ينهـضا قال أحدهما للآخر: فك الكتـاب المختوم الذي معك فيفكه له فإذا فيه مـا كتب سواء» فذلك قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ غريب من حديث الأعمش عن زيد، لم يروه عنه إلا سهيل [٣]. وروي من حديث أنس أن نبي الله ﷺ قال: « إن الله وكل بعبده ملكين يكتـبان عمله، فإذا مات قـالا: ربنا قد مات فلان فأذن لنا أن نصعـد إلى السماء فيقول الله تعالى: إن سمواتي مملوءة من ملائكتي يسبحونني، فيقولان: ربنا نقيم في الأرض؟ فيقول الله تعالى: إن أرضي مملوءة من خلقي يسبـحونني، فيقولان: يا رب فأين نكون ؟ فيـقول الله تعالى: كونا على قبر عبدي فكبراني وهللاني وسبحاني واكتبا ذلك لعبدي إلى يوم ٱلقيامة» [٤].

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ أي غمرته وشـدته؛ فالإنسان ما دام حيـا تكتب عليه أقواله وأفعاله ليحاسب عليها، ثم يجيـؤه الموت وهو ما يراه عند المعاينة من ظهور الحق فيما كان الله تعالى وعده وأوعـده. وقيل: الحق هو الموت سمي حقا إمـا لاستحقاقه وإمـا لانتقاله إلى دار الحق؛ فعلى هذا يكون في الكلام تقديم وتأخيـر، وتقديره: وجاءت سكرة الحق بالموت ، وكذلك في قراءة أبي بكر وابن مـسعـود رضي الله عنهمـا ؛ لأن السكرة هي الحق فـأضيفـت إلى نفسـها لاختـلاف اللفظين. وقيل: يجوز أن يكون الحق على هذه القراءة هو الله تعالى؛ أي جاءت سكرة أمر الله تعالى بالموت. وقـيل: الحق هو الموت والمعنى وجاءت سكرة الموت بالمـوت؛ ذكره المهدوي. وقـد زعم من طعن على القرآن فـقال: أخالف المصـحف كما خـالف أبو بكر الصديق فقـرأ: وجاءت سكرة الحق بالموت. فاحـتج عليه بأن أبا بكر رُويت عنه روايتـان: إحداهما موافـقة للمصـحف فعليهـا العمل،

(١) ابن عطية في المحرر الوجيز (٦/ ١٨٢) ، وعزاه السيوطي (٦/ ٥٩٣) في الدر لابن المنذر .

(٢) ضعـيف : الهيثمي في المجـمع (١٠/ ٢٠٨) ولكن عن أنس رضي الله عنه ،وقال :« رواه البزار وفـيه تمام بن نجيح وثقـه ابن معين وغيره ، وضـعفه البخـاري وغيره ، وبقيـة رجاله رجال الصحـيح » وذكره المتقي الهندي (٤٣٠٨٠) في كنز العمال من رواية أبي يعلى ، عن أنس ـ رضي الله عنه.

(٣) ضعيف : أبو نعيم في الحلية (٥/ ٥٧) واستغربه .

(٤) ضعيف جدًا : البيهقي (٧/ ١٨٤) في شعب الإيمان ،وقال :« تفرد به عثمان بن مطر وليس بالقوى »، ورواه أبو الشيخ في العظمة (٣/ ٩٨٠) ، والديلمي في مسند الفردوس (٤/ ٣٨٣) .

والأخرى مرفوضة تجري مجرى النسيان منه إن كان قالها، أو الغلط من بعض من نقل الحديث. قال أبو بكر الأنباري: حدثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي، حدثنا علي بن عبد الله حدثنا جرير عن منصور عن أبي وائل عن مسروق قال: لما احتضر أبو بكر أرسل إلى عائشة، فلما دخلت عليه قالت: هذا كما قال الشاعر:

إذا حَشْرَجَتْ يوماً وضاقَ بها الصَّدْرُ

فقال أبو بكر: هلا قلت كما قال الله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ وذكر الحديث (١). والسكرة واحدة السكرات. وفي الصحيح عن عائشة أن رسول الله ﷺ كانت بين يديه ركوة - أو علبة - فيها ماء فجعل يدخل يديه في الماء، فيمسح بهما وجهه ويقول: «لا إله إلا الله إن للموت سكرات» ثم نصب يده فجعل يقول: «في الرفيق الأعلى» حتى قبض ومالت يده. خرجه البخاري(٢). وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن العبد الصالح ليعالج الموت وسكراته وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول: السلام عليك تفارقني وأفارقك إلى يوم القيامة»(٣). وقال عيسى بن مريم: «يا معشر الحواريين ادعوا الله أن يهون عليكم هذه السكرة»(٤) يعني سكرات الموت. وروي: «إن الموت أشد من ضرب بالسيوف، ونشر بالمناشير، وقرض بالمقاريض»(٥). ﴿ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي يقال: لمن جاءته سكرة الموت ذلك ما كنت تفر منه وتميل عنه. يقال: حاد عن الشيء يَحِيدُ حُيُوداً وَحَيْدَةً وَحَيْدُودَةً: مال عنه وعدل. وأصله حَيَدُودَة بتحريك الياء فسكنت؛ لأنه ليس في الكلام فعلول غير صعفوق. وتقول في الأخبار عن نفسك: حِدْتُ عن الشيء أَحِيدُ حَيْداً ومَحِيداً: إذا ملت عنه؛ قال طرفة:

أبا منذرٍ رُمْتَ الوفاءَ فَهِبْتَهُ وحِدْتَ كما حَادَ البَعِيرُ عَنِ الدَّحْضِ

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ۝ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ۝ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ هي النفخة الآخرة للبعث ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ الذي وعده الله للكفار أن يعذبهم فيه. وقد مضى الكلام في النفخ في الصور مستوفى، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ اختلف في السائق والشهيد؛ فقال ابن عباس: السائق من الملائكة والشهيد من أنفسهم الأيدي والأرجل؛ رواه العوفي عن ابن عباس(٦). وقال أبو هريرة: السائق الملك والشهيد العمل (٧). وقال الحسن وقتادة: المعنى سائق يسوقها وشاهد يشهد

(١) صحيح: الطبري في تفسيره (٢٦/ ١٦٥)، وهو في الطبقات الكبرى (٣/ ١٩٦، ١٩٧) لابن سعد.
(٢) صحيح: البخاري (٤٤٤٩) في المغازي.
(٣) موضوع: تنزيه الشريعة (٣٧٥) وفيه إبراهيم بن هدية: متروك كما في الميزان (١/ ٧١).
(٤) من الإسرائيليات: وذكره المصنف في التذكرة (١/ ١٩).
(٥) موضوع: ابن الجوزي في الموضوعات (٣/ ٢٢٠).
(٦) ضعيف: رواه الطبري في تفسيره (٢٦/ ١٦٦) من طريق العوفيين.
(٧) انظر: تفسير ابن كثير (٨/ ٣٠٩)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٦/ ١٢٣) للحاكم وابن أبي حاتم، والحاكم في الكنى وابن المنذر

عليهـا بعملها [١] . وقال ابن مسلم: السـائق قرينها من الشيـاطين سمي سائقا ؛لأنه يتبـعها وإن لم يحثها. وقال مجاهد: السائق والشهيد ملكان. وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال وهو على المنبر: ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ سائق: ملك يسوقها إلى أمر الله، وشـهيد: يشهد عليها بعملها [٢] .

قلت: هذا أصح فإن في حديث جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن ابن آدم لفي غفلة عـما خلقه الله عز وجل له إن الله لا إله غـيره إذا أراد خلقه قال للملـك: اكتب رزقه وأثره وأجله واكتبه شقيا أو سعيدا ،ثم يرتفع ذلك الملك ويبعث الله ملكا آخر فيحفظه حتى يدرك ثم يبعث الله ملكين يكتبان حسناته وسيئاته ،فإذا جاءه الموت ارتفع ذلك الملكان ثم جاء ملك الموت عليه السلام فيقبض روحه فإذا أدخل حفـرته رد الروح في جسده ثم يرتفع ملك الموت ثم جاءه ملكا القبر فامتحناه ثم يرتفعان فإذا قامت الساعة انحط عليه مـلك الحسنات وملك السيئات فأنشطا كتابا معقودا في عنقه ثم حـضرا معـه واحد سائق والآخر شـهيد » ثم قـال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ قال رسول الله ﷺ: ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ ﴾[الانشقاق] قال: «حالا بعد حال» ثم قال النبي ﷺ: « إن قدامكم أمرا عظيما فاسـتعينوا بالله العظيم» خرجه أبو نعيم الحافظ من حديث جعفر بن محمـد بن علي عن جابر وقال فيه: هذا حديث غريب من حديث جعفر، وحديث جابر تفرد به عنه جابر الجعفي وعنه المفضل [٣] . ثم في الآية قولان: أحدهما : أنها عامة في المسلم والكافر وهو قول الجمهور. الثاني: أنها خاصة في الكافر؛ قاله الضحاك [٤] .

قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ ﴾ قال ابن زيد: المراد به النبي ﷺ ؛ أي لقد كنت يا محمد في غفلة من الـرسالة في قريش في جاهليتهم [٥] .وقال ابن عباس والضحاك: إن المراد به المشركـون أي كانوا في غفلة من عـواقب أمورهم [٦] .وقال أكثر المفـسرين: إن المراد به البر والفاجر. وهو اختيار الطبري [٧] . وقيل: أي لقد كنت أيها الإنسان فـي غفلة عن أن كل نفس معها سائق وشهيد ؛ لأن هذا لا يعرف إلا بالنصوص الإلهية. ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ ﴾ أي عماك؛ وفيه أربعة أوجه: أحدها : إذا كان في بطن أمـه فولد؛ قاله السدي [٨] . الثاني: إذا كان في القـبر فنشر. وهذا معنى قـول ابن عباس. والثـالث: وقت العرض في القيـامة؛ قاله مـجاهد. الرابع: أنه نزول الوحي وتحمل الرسالة. وهذا معنى قول ابن زيد. ﴿ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ قيل: يراد به بصر القلب كما يقال:

---

(١) صحيح : الطبري فى تفسيره (٢٦/ ١٦٦) .

(٢) ضعيف جدًا : الطبرى (٢٦/ ١٦٦) في تفسيره، ورواه ابن المبارك في الزهد (١/ ١٠٦) .

(٣) ضعيف جـدًا إن لم يكن موضوعًا : وقد تفـرد به جابر الجعفى وهو ضعـيف ، وانظر: الحلية (٣/ ١٩٠) لأبي نعيم وسيأتى فى سورة الانشقاق كاملاً .

(٤) كذا عند الطبرى (٢٦/ ١٦٧) في تفسيره منقطعًا بينه وبين شيخه الحسين .

(٥) هذا بعيد : الطبرى (٢٦/ ١٦٧) في تفسيره وأنكره .

(٦، ٧) انظر: السابق (٢٦/ ١٦٨) .

(٨) الماوردى (٥/ ٣٤٩) فى تفسيره .

هو بصير بالفقه؛ فبصر القلب وبصيرته تبصرته شواهد الأفكار ونتائج الاعتبار، كما تبصر العين ما قابلها من الأشخاص والأجسام. وقيل: المراد به بصر العين وهو الظاهر أي بصر عينك اليوم حديد؛ أي قوي نافذ يرى ما كان محجوبا عنك. قال مجاهد: ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ يعني نظرك إلى لسان ميزانك حين توزن سيئاتك وحسناتك [١]. وقاله الضحاك. وقيل: يعاين ما يصير إليه من ثواب وعقاب. وهو معنى قول ابن عباس. وقيل: يعني أن الكافر يحشر وبصره حديد ثم يزرق ويعمى. وقرئ: «لقد كنت» «فبصرك» بالكسر على خطاب النفس.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ۝ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۝ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ ۝ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ۝ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ۝ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ۝ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ يعني الملك الموكل به في قول الحسن وقتادة والضحاك [٢]. ﴿هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أي هذا ما عندي من كتابة عمله مُعَدّ محفوظ. وقال مجاهد: يقول هذا الذي وكلتني به من بني آدم قد أحضرته وأحضرت ديوان عمله [٣]. وقيل: المعنى هذا ما عندي من العذاب حاضر. وعن مجاهد أيضا: قرينه الذي قُيض له من الشياطين. وقال ابن زيد في رواية ابن وهب عنه: إنه قرينه من الإنس، فيقول الله تعالى لقرينه ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ [٤]. قال الخليل والأخفش: هذا كلام العرب الفصيح أن تخاطب الواحد بلفظ الاثنين فتقول: ويلك ارحلاها وازجراها، وخذاه وأطلقاه للواحد. قال الفراء: تقول للواحد: قوما عنا، وأصل ذلك أن أدنى أعوان الرجل في إبله وغنمه ورفقته في سفره اثنان، فجرى كلام الرجل على صاحبيه، ومنه قولهم للواحد في الشعر: خليلي، ثم يقول: يا صاح. قال امرؤ القيس:

خَلِيلَيَّ مُرَّا بِي على أُمِّ جُنْدَبِ ... نُقَضِّ لُبَانَاتِ الفؤادِ المُعَذَّبِ

وقال أيضا:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ ... بِسَقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

وقال آخر:

فإنْ تَزْجُراني يابنَ عَفَّانَ أَنْزَجِرْ ... وإنْ تَدَعواني أَحْمِ عِرْضاً مُمَنَّعَا

وقيل: جاء كذلك لأن القرين يقع للجماعة والاثنين. وقال المازني: قوله: ﴿أَلْقِيَا﴾ يدل على ألق ألق. وقال المبرد: هي تثنية على التوكيد، المعنى: ألق ألق فناب ﴿أَلْقِيَا﴾ مناب التكرار. ويجوز أن يكون ﴿أَلْقِيَا﴾ تثنية على خطاب الحقيقة من قول الله تعالى يخاطب به الملكين. وقيل: هو مخاطبة

---

(١) ذكره البغوي في تفسيره (٧/ ٣٦٠).

(٢) صحيح إلى قتادة: الطبري (٢٦/ ١٦٩) في تفسيره، وانظر: تفسير ابن كثير (٨/ ٣٠٩)، وانظر قول الضحاك والحسن عند الشوكاني في فتح القدير (٧/ ٣١).

(٣، ٤) انظر: فتح القدير للشوكاني (٧/ ٣١).

للسائق والحافظ. وقيل: إن الأصل القين بالنون الخفيفة تقلب في الوقف ألفا فحمل الوصل على الوقف. وقرأ الحسن «أَلْقَيْنَ» بالنون الخفيفة نحو قوله: ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢] وقوله: ﴿لَنَسْفَعًا﴾ [العلق: ١٥]. ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي معاند؛ قاله مجاهد وعكرمة. وقال بعضهم: العنيد المعرض عن الحق؛ يقال: عَنَدَ يَعْنِدُ - بالكسر - عُنُودا أي خالف ورد الحق وهو يعرفه فهو عَنِيدٌ وعَانِدٌ، وجمع العنيد عُنُدٌ مثل رَغِيف ورُغُفٌ. ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ يعني الزكاة المفروضة وكل حق واجب. ﴿مُعْتَدٍ﴾ في منطقه وسيرته وأمره؛ ظالم. ﴿مُّرِيبٍ﴾ شاك في التوحيد؛ قاله الحسن وقتادة [١]. يقال: أراب الرجل فهو مُرِيب: إذا جاء بالرِّيبة. وهو المشرك يدل عليه قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة. وأراد بقوله: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أنه كان يمنع بني أخيه من الإسلام. ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ تأكيد للأمر الأول.

﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ يعني الشيطان الذي قيض لهذا الكافر العنيد تبرأ منه وكذبه. ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ عن الحق وكان طاغيا باختياره وإنما دعوته فاستجاب لي. وقرينه هنا هو شيطانه بغير اختلاف. حكاه المهدوي. وحكى الثعلبي: قال ابن عباس ومقاتل: قرينه الملك؛ وذلك أن الوليد بن المغيرة يقول للملك الذي كان يكتب سيئاته: رب إنه أعجلني، فيقول الملك: ربنا ما أطغيته أي ما أعجلته [٢]. وقال سعيد بن جبير: يقول الكافر رب إنه زاد علي في الكتابة، فيقول الملك: ربنا ما أطغيته أي ما زدت عليه في الكتابة؛ فحينئذ يقول الله تعالى: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ يعني الكافرين وقرناءهم من الشياطين [٣]. قال القشيري: وهذا يدل على أن القرين الشيطان. ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ أي أرسلت الرسل. وقيل: هذا خطاب لكل من اختصم. وقيل: هو للاثنين وجاء بلفظ الجمع. ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ قيل هو قوله: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] وقيل: هو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]. وقال الفراء: ما يكذب عندي أي ما يزاد في القول ولا ينقص لعلمي بالغيب. ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي ما أنا بمعذب من لم يُجرم؛ قاله ابن عباس [٤]. وقد مضى القول في معناه في «الحج» [٥] وغيرها.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ قرأ نافع وأبو بكر: «يومَ يقولُ» [٦]

(١) صحيح إلى قتادة: الطبري (٢٦/ ١٧٠) في تفسيره.

(٢) هذا بعيد جدًا وروايات الثعلبي ضعيفة أكثرها. وانظر: تفسير البغوي (٧/ ٣٦١) والقرين هنا هو الشيطان وهو الأصح.

(٣) فتح القدير (٧/ ٣١) للشوكاني.

(٤، ٥) انظر سورة الحج الآية (١٠) والآية (٤٦) من سورة فصلت.

(٦) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص١٧٥).

بالياء اعتبارا بقوله: ﴿لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾. الباقون بالنون على الخطاب من الله تعالى وهي نون العظمة. وقرأ الحسن « يوم أقـول». وعن ابن مسعود وغـيره « يوم يقال» [١]. وانتصب ﴿يَوْمَ﴾ على معنى ما يبدل القول لدي يوم. وقيل: بفـعل مقدر معناه: وأنذرهم ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ﴾ لما سبق من وعده إياها أنه يملؤهـا. وهذا الاستفـهام على سبـيل التصديق لخـبره، والتحـقيق لوعده، والتـقريع لأعدائه، والتنبيه لجميع عباده. وتقول جهنم ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ أي ما بقي في موضع للزيادة؛ كقوله عليه السلام: « هل ترك لنا عـقيل من ربع أو منزل» [٢] أي ما ترك؛ فـمعنى الكلام الجحد. ويحـتمل أن يكون اسـتفـهامـا بمعنى الاستـزادة؛ أي هل من مزيـد فأزداد؟. وإنما صلح هذا للوجـهين؛ لأن في الاستفهام ضربا من الجحد. وقـيل: ليس ثم قول وإنما هو على طريق، المثل؛ أي إنها فيما يظهر من حالها بمنزلة الناطقة بذلك؛ كما قال الشاعر:

امتلأ الحوضُ وقال: قَطْنِي مَهْلاً رُوَيْداً قَدْ مَلأْتَ بَطْنِي

وهذا تفسير مجاهد وغيره [٣]. أي هل فيّ من مسلك قد امتلأت. وقيل: ينطق الله النار حتى تقول هذا كما تنطق الجوارح. وهذا أصح على ما بيناه في سورة «الفرقان» [٤]، وفي «صحيح مسلم» والبخاري والتـرمذي عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «لا تزال جهنم يلقى فـيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمـه فينزوي بعضها إلى بعض وتقول قط قط بعزتك وكرمك ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقا فيسكنهم فضل الجنة » لفظ مسلم [٥]، وفي رواية أخرى من حديث أبي هريرة: «وأما النار فلا تمتلئ حتى يضع الله عليها رجله يقول لها قط قط فهنالك تمتلئ وينزوي بعضها إلى بعض فلا يظلم الله من خلقه أحدا وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقا » [٦].

قال علمـاؤنا رحمهم الله: أما مـعنى القدم هنا فهم قَـومٌ يُقَدِّمهم الله إلى النار، وقـد سبق في علمه أنهم من أهل النار. وكـذلك الرجل وهو العدد الكثيـر من الناس وغيرهم؛ يقـال: رأيت رجلا من الناس ورجلا من جراد، قال الشاعر:

فمرَّ بنا رِجْلٌ من النَّاسِ وانْزَوَى إليهم من الحيِّ اليمانينَ أَرْجُلُ
قبائلُ من لَخْـمٍ وعُكْلٍ وحِـمْيَرٍ على ابْنَيْ نِزارٍ بالعَدَاوة أَحْفَلُ

ويبين هذا المعنى ما روي عن ابن مـسعود [٧] أنه قال: ما في النار بيت ولا سـلسـلة ولا مقمع

(١) هذه قراءة غير متواترة، وانظر: البحر المحيط (٨/ ١٢٧) لأبي حيان.

(٢) متفق عليه: البخاري في الحج (١٥٨٨)، ومسلم (١٣٥١/ ٤٣٩، ٤٤٠) في الحج، كلاهما عن أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(٣) صحيح إلى مجاهد: تفسير الطبري (٢٦/ ١٧٣). (٤) عند الآيتين (١٧، ١٨).

(٥) متفق عليه: البخاري في التفسير (٤٨٤٨)، ومسلم (٢٨٤٨) في الجنة وصفة نعيمها وأهلها.
وقط قط: أي حسبي ويكفيني.
وينزوي: ينضم بعضها إلى بعض. من شرح النووي على مسلم (٤/ ٢١٨٧).

(٦) متفق عليه: البخاري (٤٨٥٠) في التفسير، ومسلم (٢٨٤٦، ٢٨٤٧) في الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

(٧) هذه سقطةٌ من سقطات أهل التأويل، والواجب إثبات صفـة القدم لله تعالى دون تأويل كما فعل المصنف هنا، وفي شرح الواسطية لابن عثيمين ـ رحمـه الله (ص ٣٤)، وزاد: « إن الجنة عرضها السموات والأرض يدخلها أهلها لكنها لا تمتلئ، وقد تكفل الله عزّ وجل للجنة والنـار لكـل واحـدة ملؤهـا، أما النار ... فذكر الآية =

ولا تابوت إلا وعليه اسم صاحبه، فكل واحد من الخزنة ينتظر صاحبه الذي قد عرف اسمه وصفته، فإذا استوفى كل واحد منهم ما أمر به وما ينتظره ولم يبق منهم أحد قال الخزنة: قط قط، حسبنا حسبنا! أي اكتفينا اكتفينا، وحينئذ تنزوي جهنم على من فيها وتنطبق إذ لم يبق أحد ينتظر. فعبر عن ذلك الجمع المنتظر بالرجل والقدم؛ ويشهد لهذا التأويل قوله في نفس الحديث: «لا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقا فيسكنهم فضل الجنة» (١) وقد زدنا هذا المعنى بيانا ومهدناه في كتاب الأسماء والصفات من الكتاب «الأسنى» والحمد لله. وقال النضر بن شميل في معنى قوله عليه السلام: «حتى يضع الجبار فيها قدمه» (٢) أي من سبق في علمه أنه من أهل النار.

قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي قربت منهم. وقيل: هذا قبل الدخول في الدنيا؛ أي قربت من قلوبهم حين قيل لهم اجتنبوا المعاصي. وقيل: بعد الدخول قربت لهم مواضعهم فيها فلا تبعد. ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي منهم وهذا تأكيد. ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ أي ويقال لهم: هذا الجزاء الذي وعدتم في الدنيا على ألسنة الرسل. وقراءة العامة: ﴿تُوعَدُونَ﴾ بالتاء على الخطاب. وقرأ ابن كثير بالياء (٣) على الخبر؛ لأنه أتى بعد ذكر المتقين. ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ أواب أي رجاع إلى الله عن المعاصي، ثم يرجع يذنب ثم يرجع، هكذا قاله الضحاك وغيره (٤). وقال ابن عباس وعطاء: الأواب المسبح من قوله: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾ (٥) [سبأ: ١٠]. وقال الحكم بن عتيبة: هو الذاكر لله تعالى في الخلوة. وقال الشعبي ومجاهد (٦): هو الذي يذكر ذنوبه في الخلوة فيستغفر الله منها. وهو قول ابن مسعود. وقال عبيد بن عمير: هو الذي لا يجلس مجلسا حتى يستغفر الله تعالى فيه. وعنه قال: كنا نحدث أن الأواب الحفيظ الذي إذا قام من مجلسه قال: سبحان الله وبحمده، اللهم إني أستغفرك مما أصبت في مجلسي هذا (٧). وفي الحديث: «من قال إذا قام من مجلسه: سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك غفر الله له ما كان في ذلك المجلس» (٨). وهكذا كان النبي صلى ﷺ يقول. وقال بعض العلماء: أنا أحب أن أقول: أستغفرك وأسألك التوبة، ولا أحب أن أقول: وأتوب إليك إلا على حقيقته.

قلت: هذا استحسان، واتباع الحديث أولى. وقال أبو بكر الوراق: هو المتوكل على الله في السراء والضراء. وقال القاسم: هو الذي لا يشتغل إلا بالله عز وجل. ﴿حَفِيظٍ﴾ قال ابن عباس: هو

= هنا والحديث ـ ثم الجنة ينشئ لها أقوامًا فيدخلون الجنة بفضل الله ورحمته، لأن رحمته سبحانه سبقت غضبه» . ا . هـ . بتصرف يسير .

(١، ٢) متفق عليهما: وقد سبقا .

(٣) قراءة متواترة : تقريب النشر (ص١٧٥) . (٤) تفسير البغوى (٧ / ١٣٦٢) .

(٥) ذكره الطبرى فى تفسيره (٢٦/ ١٧٦) وفى سند ابن عباس ضعيف ، ففيه عطاء بن السائب وقد اختلط .

(٦) حسن إلى مجاهد : ابن أبي شيبة (٧/ ٢٣٢) في المصنف ، وهو ضعيف إلى الشعبي، ففيه عيسى الخياط . وانظر : تفسير الطبرى (٢٦/ ١٧٦) .

(٧) صحيح إليه: ابن أبي شيبة (٧/ ٢٣٢) في المصنف ،والبيهقى (٥/ ٤٣٦) في شعب الإيمان .

(٨) صحيح : أبو داود فى الأدب (٤٨٥٩) ، والنسائى (١٠٢٥٩) في الكبرى عن أبي برزة الأسلمى، وضعفه الألباني هناك .

الذي حفظ ذنوبه حتى يرجع عنها [١]. وقال قتادة: حفيظ لما استودعه الله من حقه ونعمته وأتمنه عليه [٢]. وعن ابن عباس أيضا: هو الحافظ لأمر الله [٣]. مجاهد: هو الحافظ لحق الله تعالى بالاعتراف ولنعمه بالشكر [٤]. قال الضحاك: هو الحافظ لوصية الله تعالى بالقبول [٥]. وروى مكحول عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من حافظ على أربع ركعات من أول النهار ؛ كان أوابا حفيظا» ذكره الماوردي [٦].

قوله تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ ﴿من﴾ في محل خفض على البدل من قوله: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ أو في موضع الصفة لـ ﴿أَوَّابٍ﴾. ويجوز الرفع على الاستئناف، والخبر ﴿ادْخُلُوهَا﴾ على تقدير حذف جواب الشرط والتقدير فيقال لهم: ﴿ادْخُلُوهَا﴾. والخشية بالغيب أن تخافه ولم تره. وقال الضحاك والسدي: يعني في الخلوة حين يراه أحد [٧]. وقال الحسن: إذا أرخى الستر وأغلق الباب [٨]. ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ مقبل على الطاعة. وقيل: مخلص. وقال أبو بكر الوراق: علامة المنيب أن يكون عارفا لحرمته وموالیا له، متواضعا لجلاله تاركا لهوى نفسه.

قلت: ويحتمل أن يكون القلب المنيب القلب السليم؛ كما قال تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩] على ما تقدم؛ والله أعلم. ﴿ادْخُلُوهَا﴾ أي يقال لأهل هذه الصفات: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ أي بسلامة من العذاب. وقيل: بسلام من الله وملائكته عليهم. وقيل: بسلامة من زوال النعم. وقال: ﴿ادْخُلُوهَا﴾ وفي أول الكلام ﴿مَّنْ خَشِيَ﴾؛ لأن ﴿من﴾ تكون بمعنى الجمع.

قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ يعني ما تشتهيه أنفسهم وتلذ أعينهم. ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ من النعم مما لم يخطر على بالهم. وقال أنس وجابر: المزيد النظر إلى وجه الله تعالى بلا كيف [٩]. وقد ورد ذلك في أخبار مرفوعة إلى النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] قال: الزيادة النظر إلى وجه الله الكريم. وذكر ابن المبارك ويحيى بن سلام، قالا: أخبرنا المسعودي عن المنهال بن عمرو عن أبي عبيدة بن عبدالله بن عتبة عن ابن مسعود قال: تسارعوا إلى الجمعة فإن الله تبارك وتعالى يبرز لأهل الجنة كل يوم جمعة في كثيب من كافور أبيض فيكونون منه في القرب [١٠]. قال ابن المبارك: على قدر تسارعهم إلى الجمعة في الدنيا. وقال يحيى بن سلام: لمسارعتهم إلى

---

(١) ضعيف: الطبري (٢٦/ ١٧٦)، في تفسيره، وفيه محمد بن حميد: متهم.

(٢) صحيح: الطبرى فى تفسيره (٢٦/ ١٧٧).

(٣ ـ ٥) كذا عند البغوى فى تفسيره (٧/ ٣٦٣).

(٦) ضعيف للانقطاع: فمكحول لم يسمع من أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ وانظر: الماوردي (٥/ ٣٥٤) في النكت والعيون.

(٧، ٨) فتح القدير (٧/ ٣٣) للشوكاني.

(٩) ضعيف الإسناد إلى أنس ـ رضي الله عنه: اللالكائى (٨١٣) فى شرح أصول الاعتقاد، وفيه أبو اليقظان وهو عثمان بن عمير، ضعفه ابن حجر، وأعلّه بالاختلاط، وقال: «وكان يدلس ويغلو فى التشيع»، وضعفه الذهبى. وذكر قول جابر هناك، وانظر: البغوى فى تفسيره (٧/ ٦٣).

(١٠) ضعيف: فيه المسعودى، وقد اختلط بأخرة، ورواه ابن المبارك في الزهد (١/ ١٣١)، والسنة (١/ ٢٥٩) لعبد الله ابن الإمام أحمد، والطبرانى كما عند الهيثمى في المجمع (٢/ ١٧٨)، وفيه انقطاع بين أبى عبيدة وأبيه.

الجمع في الدنيا، وزاد :فيحدث الله لهم من الكرامة شيئا لم يكونوا رأوه قبل ذلك[١] . قال يحيى: وسمعت غير المسعودي يزيد فيه قوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

قلت : قوله :في كثيب . يريد أهل الجنة، أي وهم على كثب؛ كما في مرسل الحسن، قال: قال رسول الله ﷺ : « إن أهل الجنة ينظرون ربهم في كل يوم جمعة على كثيب من كافور»[٢] . الحديث وقد ذكرناه في كتاب « التذكرة ». وقيل: إن المزيد ما يزوجون به من الحور العين؛ رواه أبو سعيد الخدري مرفوعا[٣] .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ۝ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي كم أهلكنا يا محمد قبل قومك من أمة هم أشد منهم بطشا وقوة. ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ أي ساروا فيها طلبا للمهرب. وقيل: أثروا في البلاد؛ قاله ابن عباس[٤] . وقال مجاهد: ضربوا وطافوا[٥] . وقال النضر بن شميل: دَوَّروا. وقال قتادة: طوَّفوا[٦] . وقال المؤرج: تباعدوا؛ ومنه قول امرئ القيس:

وقد نَقَّبتُ في الآفاق حتَّى رَضِيتُ من الغنيمة بالإياب

ثم قيل: طافوا في أقاصي البلاد طلبا للتجارات، وهل وجدوا من الموت محيصا ؟ وقيل: طوفوا في البلاد يلتمسون محيصا من الموت. قال الحارث بن حلزة:

نَقَّبُوا في البلادِ من حَذَرِ المو ت وجَالُوا في الأرضِ كُلَّ مَجَالِ

قرأ الحسن وأبو العالية « فَنَقَبُوا » بفتح القاف وتخفيفها. والنَّقْبُ: هو الخرق والدخول في الشيء.

وقيل: النَّقْبُ : الطريق في الجبل، وكذلك المنقب والمنقبة؛ عن ابن السكيت. ونقب الجدار نقبا، واسم تلك النقبة نقب أيضا، وجمع النقب النقوب؛ أي خرقوا البلاد وساروا في نقوبها. وقيل: أثروا فيها كتأثير الحديد فيما ينقب. وقرأ السلمي ويحيى بن يعمر« فَنَقَّبُوا » بكسر القاف والتشديد على الأمر بالتهديد والوعيد؛ أي طوفوا البلاد وسيروا فيها فانظروا ﴿هَلْ مِن﴾ الموت

---

(١) ضعيف : السابق نفسه

(٢) مرسل : الحسن لم يدرك زمن النبي ﷺ وهو مدلس ، وذكره ابن كثير موصولاً عن أنس بسند ضعيف ، وانظر تفسيره (٧/ ٣١٣) ، وقد ذكره المصنف في التذكرة من قول الحسن (٢/ ٤٩٩) .

(٣) لا يصح مرفوعًا ولا موقوفًا : التذكرة (٢/ ٥٠٢) وقد ذكره الطبرى فى تفسيره (١٦/ ١٨٠) بسند فيه ابن لهيعة وهو مختلط ، من رواية درّاج عن أبي الهيثم وهو ضعيف .

(٤) منقطع : بين علي بن أبي طلحة ، وابن عباس ـ رضي الله عنهما ، الطبرى (٢٦/ ١٨٠) في تفسيره .

(٥) صحيح إلى مجاهد : السابق (٢٦/ ١٨٠)

(٦) تفسير ابن كثير (٧/ ٣١٤) .

﴿مَّحِيصٍ﴾ ومهرب؛ ذكره الثعلبي. وحكى القشيري « فَنَقِبُوا » بكسر القاف مع التخفيف؛ أي أكثروا السير فيها حتى نقبت دوابهم. الجوهري: ونقب البعير بالكسر إذا رقت أخفافه، وأنقب الرجل: إذا نقب بعيره، ونقب الخف الملبوس أي تخرق. والمحيصُ: مصدر حَاصَ عنه يَحِيصُ حَيْصًا وحيوصا ومَحِيصًا ومَحَاصًا وحَيَصَانًا؛ أي عدل وحاد. يقال: ما عنه محيص أي محيد ومهرب. والانحياص مثله؛ يقال للأولياء: حاصوا عن العدو وللأعداء انهزموا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ أي فيما ذكرناه في هذه السورة تذكرة وموعظة ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أي عقل يتدبر به؛ فكنى بالقلب عن العقل لأنه موضعه؛ قال معناه مجاهد وغيره. وقيل: لمن كان له حياة ونفس مميزة، فعبر عن النفس الحية بالقلب؛ لأنه وطنها ومعدن حياتها؛ كما قال امرؤ القيس:

أَغَرَّكِ منِّي أَنَّ حُبَّكِ قاتلي وأَنَّكِ مَهْمَا تَأْمُرِي الْقَلْبَ يَفْعَلِ

وفي التنزيل: ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠]. وقال يحيى بن معاذ: القلب قلبان: قلب محتش بأشغال الدنيا حتى إذا حضر أمر من الأمور الآخرة لم يدر ما يصنع، وقلب قد احتشى بأهوال الآخرة حتى إذا حضر أمر من أمور الدنيا لم يدر ما يصنع لذهاب قلبه في الآخرة. ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ أي استمع القرآن. تقول العرب: ألق إلى سمعك أي استمع. وقد مضى في «طه» كيفية الاستماع وثمرته [١]. ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي شاهد القلب؛ قال الزجاج: أي قلبه حاضر فيما يسمع. وقال سفيان: أي لا يكون حاضرا فيما يسمع وقال وقلبه غائب [٢]. ثم قيل: الآية لأهل الكتاب؛ قاله مجاهد وقتادة [٣]. وقال الحسن: إنها في اليهود والنصارى خاصة [٤]. وقال محمد بن كعب وأبو صالح: إنها في أهل القرآن خاصة [٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ تقدم في «الأعراف» [٦] وغيرها. واللغوب: التعب والإعياء، تقول منه: لَغَبَ يَلْغُبُ - بالضم - لُغُوبًا، ولَغِبَ - بالكسر - يَلْغَبُ لَغْبا، لغة ضعيفة فيه. وألغبته أنا أي أنصبته. قال قتادة والكلبي: هذه الآية نزلت في يهود المدينة؛ زعموا أن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام، أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، واستراح يوم السبت؛ فجعلوه راحة، فأكذبهم الله تعالى في ذلك [٧].

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ۝ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ۝﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ خطاب للنبي ﷺ؛ أمره بالصبر على ما يقوله

---

(١) الآية (١٣) من سورة طه.

(٢) ضعيف: الطبري (٢٦/ ١٨٢). في تفسيره

(٣) صحيح: السابق (٢٦/ ١٨٢).

(٤) انظر: أسباب النزول (ص٣٣٧) للواحدي - رحمه الله.

(٥) مرسل: الطبري (٢٦/ ١٨٢) في تفسيره.

(٦) سورة الأعراف (٥٤).

(٧) مرسل: وله شاهد موصول عن ابن عباس بسند ضعيف، ففيه أبو سعيد البقال وهو سعيد بن المرزبان، وانظر: أسباب النزول (ص٣٣٧) للواحدي.

المشركون؛ أي هون أمرهم عليك. ونزلت قبل الأمر بالقتال فهي منسوخة[١]. وقيل: هو ثابت للنبي ﷺ وأمته. وقيل معناه: فاصبر على ما يقوله اليهود من قولهم: إن الله استراح يوم السبت.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ قيل: إنه أراد به الصلوات الخمس. قال أبو صالح: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ صلاة الصبح، ﴿وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ صلاة العصر. ورواه جرير بن عبد الله مرفوعا؛ قال: كنا جلوسا عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: « أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » يعني العصر والفجر، ثم قرأ جرير: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾[طه: ١٣٠] متفق عليه واللفظ لمسلم[٢]. وقال ابن عباس: ﴿قَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ الظهر والعصر. ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ يعني صلاة العشاءين[٣]. وقيل: المراد تسبيحه بالقول تنزيها قبل طلوع الشمس وقبل الغروب؛ قاله عطاء الخراساني وأبو الأحوص. وقال بعض العلماء في قوله: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ قال ركعتي الفجر ﴿وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ الركعتين قبل المغرب؛ وقال ثمامة بن عبد الله بن أنس: كان ذوو الألباب من أصحاب محمد ﷺ يصلون الركعتين قبل المغرب. وفي« صحيح مسلم» عن أنس بن مالك قال: كنا بالمدينة فإذا أذن المؤذن لصلاة المغرب ابتدروا السواري فركعوا ركعتين، حتى إن الرجل الغريب ليدخل المسجد فيحسب أن الصلاة قد صليت من كثرة من يصليهما[٤]. وقال قتادة: ما أدركت أحدا يصلي الركعتين إلا أنسا وأبا برزة الأسلمي[٥].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ فيه أربعة أقوال[٦]: الأول: هو تسبيح الله تعالى في الليل، قاله أبو الأحوص. الثاني: أنها صلاة الليل كله؛ قاله مجاهد[٧]. الثالث: أنها ركعتا الفجر؛ قاله ابن عباس[٨]. الرابع: أنها صلاة العشاء الآخرة؛ قاله ابن زيد. قال ابن العربي[٩]: من قال إنه التسبيح في الليل فيعضده الصحيح «من تعار[١٠] من الليل فقال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شي قدير، سبحان الله والحمد لله

---

(١) دعوى النسخ هنا ضعيف لعدم وجود معارض.

(٢) متفق عليه: البخارى (٥٥٤) فى مواقيت الصلاة، ومسلم (٦٣٣/ ٢١١، ٢١٣) في المساجد ومواضع الصلاة، وانظر: قيام الليل لمحمد بن نصر (ص٦٤).

(٣) ضعيف: الطبري (٢٦/ ١٨٥) في تفسيره، والبغوى (٧/ ٣٦٤) في تفسيره.

(٤) صحيح: مسلم (٨٣٧) فى صلاة المسافرين وقصرها. والسواري: ج سارية وهى الأسطوانة أو العمود، ومعنى ابتدروا السواري: أسرعوا إليها ليقف كل واحد خلف أسطوانة لئلا يقع المرور بين يديه فى صلاته فردًا. النهاية (٢/ ٣٦٥).

(٥) صحيح: إلى قتادة: الطبري (٢٦/ ١٨٤) في تفسيره.

(٦) انظر: الماوردى في النكت والعيون (٥/ ٣٥٧).

(٧) ضعيف إلى مجاهد: الطبري فى تفسيره (٢٦/ ١٨٤).

(٨ ضعيف: كما عند البغوى فى تفسيره (٧/ ٣٦٥).

قلت: وروى مرفوعًا وضعفه الترمذي في تفسير القرآن (٣٢٧٥)، وكذا ضعفه الألباني هناك، وفي الضعيفة (٢١٧٧)

(٩) أحكام القرآن (٤/ ١٧٢٧) لابن العربى المالكي.

(١٠) تعارّ: استيقظ من النوم. اللسان« عرى».

ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم »(١). وأما من قال: إنها الصلاة بالليل فإن الصلاة تسمى تسبيحا لما فيها من تسبيح الله، ومنه سُبْحة الضحى. وأما من قال: إنها صلاة الفجر أو العشاء فلأنهما من صلاة الليل، والعشاء أوضحه.

الرابعة : قوله تعالى: ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ قال عمر وعلي وأبو هريرة والحسن بن علي والحسن البصري والنخعي والشعبي والأوزاعي والزهري: أدبار السجود الركعتان بعد المغرب، وأدبار النجوم الركعتان قبل الفجر، ورواه العوفي عن ابن عباس، وقد رفعه ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «ركعتان بعد المغرب أدبار السجود» (٢)ذكره الثعلبي. ولفظ الماوردي: وروي عن ابن عباس قال: بت ليلة عند النبي ﷺ فصلى ركعتين قبل الفجر، ثم خرج إلى الصلاة فقال: «يابن عباس ركعتان قبل الفجر أدبار النجوم ،وركعتان بعد المغرب أدبار السجود» (٣). وقال أنس: قال النبي ﷺ « من صلى ركعتين بعد المغرب قبل أن يتكلم كتبت صلاته في عليين» (٤). قال أنس فقرأ في الركعة الأولى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ وفي الثانية: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (٥). قال مقاتل: ووقتها ما لم يغرب الشفق الأحمر. وعن ابن عباس أيضا: هو الوتر. قال ابن زيد: هو النوافل بعد الصلوات (٦)،ركعتان بعد كل صلاة مكتوبة، قال النحاس: والظاهر يدل على هذا إلا أن الأولى اتباع الأكثر وهو صحيح عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وقال أبو الأحوص: هو التسبيح في أدبار السجود (٧). قال ابن العربي (٨): وهو الأقوى في النظر. وفي صحيح الحديث: أن النبي ﷺ :كان يقول في دبر الصلاة المكتوبة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدُّ» (٩)وقيل: إنه منسوخ بالفرائض فلا يجب على أحد إلا خمس صلوات، نقل ذلك الجماعة.

الخامسة :قرأ نافع وابن كثير وحمزة « وإدبار السجود » بكسر الهمزة (١٠)على المصدر من أدبر الشيء إدبارا إذا ولى. الباقون بفتحها جمع دُبُر. وهي قراءة علي وابن عباس، ومثالها طُنُب

---

(١) صحيح : البخارى (١١٥٤) في التهجد ، أبو داود (٥٠٦٠) في الأدب ، وابن ماجه (٣٨٧٨) في الدعاء، وصححه الألبانى هناك وكلهم رووه عن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه .

(٢) ضعيف : وقد سبق.

(٣) ضعيف : الحاكم (١١٩٨) فى المستدرك ، وضعفه الألباني (٣١٦٥) فى ضعيف الجامع وضعفه عند الترمذي فى تفسير القرآن (٣٢٧٥).

(٤) ضعيف : عبد الرزاق (٤٨٣٣) في المصنف مرسلاً عن مكحول ،وضعفه الألباني (٥٦٦٠) فى ضعيف الجامع

(٥) ضعيف : انظر السابق .

(٦)كذا عند الطبرى (٢٦/ ١٨٧) في تفسيره .

(٧) ضعيف: الماوردى (٥/ ٣٥٧) في تفسيره ،والطبرى (٢٦/ ١٨٥) في تفسيره.

(٨)أحكام القرآن (٤/ ١٧٢٨) للقاضى ابن العربي المالكي .

(٩) متفق عليه: قطعة من حديث البخارى (٦٣٣٠) في الدعوات ،ومسلم (٥٩٣) في المساجد ومواضع الصلاة عن المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه .

ومعنى قوله :«لا ينفع ذا الجد منك الجد» : أى لا ينفع ذا الغنى والحظ منك غناه . شرح النووي على صحيح مسلم (٣/ ٩٢).

(١٠) قراءة متواترة بتقريب النشر (ص١٧٥).

وأطناب، أو دُبْر كقُفْل وأقْفَال. وقد استعملوه ظرفا نحو: جئتك في دبر الصلاة وفي أدبار الصلاة. ولا خلاف في آخر « والطور»: ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٩] أنه بالكسر مصدر، وهو ذهاب ضوئه إذا طلع الفجر الثاني، وهو البياض المنشق من سواد الليل.

﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ مفعول الاستماع محذوف؛ أي استمع النداء والصوت أو الصيحة وهي صيحة القيامة، وهي النفخة الثانية، والمنادي جبريل. وقيل: إسرافيل. الزمخشري[١]: وقيل: إسرافيل ينفخ وجبريل ينادي، فينادي بالحشر ويقول: هلموا إلى الحساب فالنداء على هذا في المحشر. وقيل: واستمع نداء الكفار بالويل والثبور من مكان قريب، أي يسمع الجميع فلا يبعد أحد عن ذلك النداء. قال عكرمة: ينادي منادي الرحمن فكأنما ينادي في آذانهم. وقيل: المكان القريب صخرة بيت المقدس. ويقال: إنها وسط الأرض وأقرب الأرض من السماء باثني عشر ميلا. وقال كعب: بثمانية عشر ميلا، ذكر الأول القشيري والزمخشري، والثاني الماوردي. فيقف جبريل أو إسرافيل على الصخرة فينادي بالحشر: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، ويا عظاما نخرة، ويا أكفانا فانية، ويا قلوبا خاوية، ويا أبدانا فاسدة، ويا عيونا سائلة، قوموا لعرض رب العالمين[٢]. قال قتادة: هو إسرافيل صاحب الصور[٣]. ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ يعني صيحة البعث. ومعنى ﴿الْخُرُوجِ﴾ الاجتماع إلى الحساب. ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ أي يوم الخروج من القبور. ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ نميت الأحياء ونحيي الموتى؛ أثبت هنا الحقيقة ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ إلى المنادي صاحب الصور إلى بيت المقدس. ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي هين سهل. وقرأ الكوفيون ﴿تَشَقَّقُ﴾ بتخفيف الشين على حذف التاء الأولى. الباقون بإدغام التاء في الشين[٤]. وأثبت ابن محيص وابن كثير ويعقوب ياء « المنادى » في الحالين على الأصل[٥]، وأثبتها نافع وأبو عمرو في الوصل لا غير[٦]، وحذف الباقون في الحالين.

قلت: وقد زادت السنة هذه الآية بيانا؛ فروى الترمذي عن معاوية بن حيدة عن النبي ﷺ في حديث ذكره؛ قال وأشار بيده إلى الشام فقال: «من ها هنا إلى ها هنا تحشرون ركبانا ومشاة، وتجرون

(١) الكشاف (٤/ ٣٥) للزمخشري.

(٢) الخبر من الإسرائيليات: رواه قتادة عن كعب الأحبار، وفيه الوليد بن مسلم وهو ضعيف لكونه يدلس تدليس التسوية، ورواه الطبري في تفسيره (٢٦/ ١٨٨).

(٣) مرسل: ورواه البغوي عن مقاتل (٧/ ٣٦٦) في تفسيره.

(٤) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص١٥١).

(٥، ٦) قراءتان متواترتان: تقريب النشر (ص١٧٥).

على وجوهكم يوم القيامة على أفواهكم الفدام، توفون سبعين أمة أنتم خيرهم وأكرمهم على الله، وإن أول ما يعرب عن أحدكم فخذه»(١) وفي رواية أخرى: «فخذه وكفه» ،وخرج علي بن معبد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في حديث ذكره: ثم يقول - يعني الله تعالى - لإسرافيل: « انفخ نفخة البعث فينفخ فتخرج الأرواح كأمثال النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض فيقول الله عز وجل: وعزتي وجلالي ليرجعن كل روح إلى جسده، فتدخل الأرواح في الأرض إلى الأجساد ثم تدخل في الخياشيم فتمشي في الأجساد مشي السُّم في اللديغ ،ثم تنشق الأرض عنكم وأنا أول من تنشق عنه الأرض فتخرجون منها شبابا كلكم أبناء ثلاث وثلاثين والسان يومئذ بالسريانية» (٢) وذكر الحديث، وقد ذكرنا جميع هذا وغيره في « التذكرة » مستوفى والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي من تكذيبك وشتمك. ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ أي بمسلط تجبرهم على الإسلام؛ فتكون الآية منسوخة بالأمر بالقتال(٣). والجبار من الجبرية والتسلط إذ لا يقال: جبار بمعنى مجبر، كما لا يقال: خراج بمعنى مخرج؛ حكاه القشيري. النحاس: وقيل: معنى جبار لست تجبرهم، وهو خطأ لأنه لا يكون فعال من أفعل. وحكى الثعلبي: وقال ثعلب: قد جاءت أحرف فَعَّال بمعنى مُفْعِل وهي شاذة، جَبَّار بمعنى مُجبر، ودَرَّاك بمعنى مدرك، وسَرَّاع بمعنى مُسْرِع، وبكَّاء بمعنى مُبْك، وعَدَّاء بمعنى مُعْد. وقد قرئ: « وما أهديكم إلا سبيل الرَّشَّاد » [غافر: ٢٩] بتشديد الشين بمعنى المرشد وهو موسى. وقيل: هو الله. وكذلك قرئ: « أما السفينة فكانت لَمَسَّاكين» [الكهف: ٧٩] يعني ممسكين. وقال أبو حامد الخارزنجي(٤): تقول العرب: سَيْفٌ سَقَّاط بمعنى مسقط. وقيل: ﴿بِجَبَّارٍ﴾ بمسيطر كما في الغاشية ﴿لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١].

وقال الفراء: سمعت من العرب من يقول :جبره على الأمر أي: قهره، فالجبار من هذه اللغة بمعنى القهر صحيح. قيل: الجبار من قولهم :جبرته على الأمر ،أي أجبرته وهي لغة كنانية وهما لغتان. الجوهري: وأجبرته على الأمر أكرهته عليه، وأجبرته أيضا نسبته إلى الجبر، كما تقول: أكفرته إذا نسبته إلى الكفر. ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ قال ابن عباس: قالوا: يا رسول الله، لو خوفتنا ، فنزلت: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (٥)أي ما أعددته لمن عصاني من العذاب؛ فالوعيد العذاب ، والوعد الثواب.

---

(١) صحيح : النسائي (٢٥٦٨) في الزكاة ، وأحمد في المسند (٤/ ٤٤٦، ٤٤٧) ،عن حكيم بن معاوية النهري ، عن أبيه معاوية بن حيدة ـ رضي الله عنه.

(٢) في إسناده ضعف وانقطاع : وذكره المصنف (١/ ١٧١، ١٧٢) بمتن طويل غريب وضعفناه هناك ، وكذا ضعفه ابن كثير (٢/ ٥٠) وقال : «غريب جداً »، وكذا ضعفه البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣١٢) .

(٣) سبق أن دعوى النسخ هنا لا تصح .

(٤) الخارزنجي :بفتح الخاء ،وسكون الراء بعد الألف وفتح الزاى ،وسكون النون وفى آخرها جيم ، نسبة إلى خارزنج قرية بنواحى نيسابور منها : أبو حامد ـ أحمد بن محمد ـ إمام أهل الأدب بخراسان ـ اللباب (١/ ٤٠٩).

(٥) منقطع : بين عمرو بن قيس الملائى ، وابن عباس وإن كان رجاله ثقات كما عند الطبرى (٢٦/ ١٩٠) في تفسيره، وخرجه موصولاً أيضًا ،وانظر: لباب النقول (ص٣٨٦) للسيوطي .

قال الشاعر:

وإنِّي وإنْ أَوْعَدْتُهُ أو وَعَدْتُهُ لَمُخْلِفُ إِيعَادِي ومُنْجِزُ مَوْعِدي

وكان قتادة يقـول: اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك ويرجو موعـدك. وأثبت الياء في «وعيدي» يعقـوب في الحالين [١]، وأثبتـها ورش في الوصل دون الوقف [٢]، وحذف البـاقـون في الحـالين. والله أعلم.

تم تفسير سورة ﴿ق﴾، والحمد لله.

(١، ٢) قراءتان متواترتان: تقريب النشر (ص١٧٥).